أثر وسائـــل إطالـة الكلام في سبك النص الشعري

حسام جايل

تطول الجملة، أو الكلام عن طريق عدد من الوسائل والأدوات. وهذه الوسائل تمارس تأثيرا قويا في بناء النص وتماسك أجزائه، وترابط عناصره.

وقد اهتم نحاتنا القدماء بهذه الوسائل بوصفها إحدى الوسائل النحوية الخصبة." وواجبنا الآن أن نقتدي بالآباء فنقرأ على وجه الخصوص النحو العربي قراءات كثيرة تظهر خصبه وتنوعه وكفاءته الذهنية النادرة، ولقد سمي النحو أحيانا باسم علم الإعراب والإعراب كلمة تنتفع بظلال البيان والإعراب خروج من الظلمات إلى التكوين ونور الحياة.

ما أبعد غور النحو وعلاقته بفكرة التكوين والاستقامة ودحض الباطل، والعرفان للغة وحقوقها، لكن هذه الأجواء أخذت تغيب عن أذهان الدارسين المحدثين، لقد استبدت بنا نزعة وصفية خارجية، وشغلنا بنقد النحو لا فهمه فهما باطنيًّا؛ ومن ثم تعرضت صلتنا بالنحو لما يشبه الصدع، وضاع منا تعمق الروح التي يتمتع بها هذا النحو".[1]

ولعل نحو النص/ علم النص هو المخرج الوحيد الآن من هذه الأزمة؛ إذ إنه يعتمد النحو والروابط النحوية في بيان جماليات النص، ولا يعتمد على اللغة المجردة؛ بل يتعامل مع النص اللغوي بوصفه تطبيقا حيا للغة المستعملة، ويعتمد عليها في دراسة الشاعرية؛ ذلك أن" موضوع الشاعرية ليس اللغة على وجه العموم؛ وإنما شكل خاص من أشكالها. وإنما يعد الشاعر شاعرًا لا لأنه فكّر أو أحس؛ ولكن لأنه عبر. وهو ليس مبدع أفكار وإنما هو مبدع كلمات، وكل عبقريته تكمن في اختراع الكلمة، فوجود حساسية غير عادية لا يخلق شاعرا كبيرا. لقد أمكن تعريف الشعر الغنائي من خلال سذاجته ذاتها، فنفس القائمة من المشاعر الكبرى التي تمثل رصيدا مشتركا للمشاعر الإنسانية هي التي تمده بموضوعات للإلهام لا تنفد؛ لكن السذاجة تكمن في الموضوع، وليس في التعبير فـ (بحيرة) لامارتين، و(حزن أوليمبو) لفكتور هوجو، و(ذكريات) دي موسيه Musset تقول نفس الشيء، لكن كل عمل منها يقوله بطريقة جديدة وبنسج فريد للكلمات يظل ثابتا دائما في الذاكرة؛ لأنه من خلاله وحده يتحقق الجمال." [2]

وبما أن النسيج الفريد للغة هو سر جمال هذه اللغة في الاستخدام الشعري؛ فيجب علينا البحث عن طريق هذا النسج وكشف أسراره الجمالية.

ومن طرق هذا النسج إطالة الجملة بوسائل لغوية متعددة. فالجملة العربية تعد جملة قصيرة حين يكتفي المتكلم/ المبدع بعنصريها الرئسيين المؤسسين فقط؛ وذلك لإفادة المعنى المحدد؛ ففي الجملة الاسمية يكتفي بالمبتدأ والخبر المفرد، وكذلك الحال في الجملة الفعلية حين يكتفي بالفعل والفاعل. "وقد كان على النحاة أن يحددوا أدنى قدر تنعقد به الجملة كلاما مفيدا، ولم يكن عليهم- بطبيعة الحال- أن يحددوا الجملة الطويلة؛ لأن الجملة الطويلة لا تنتهي بحد معين يجب التوقف عنده، ولكنهم حددوا العناصر غير المؤسسة التي يتم بها إطالة الجملة وتشابك بنائها بحيث تصبح جملا مركبة لا بسيطة." [3]

والجملة المقصودة هنا- بطبيعة الحال- ليست الجملة النحوية التي تمثل شاهدا عند النحاة، ولكن المقصود هنا هي الجملة النصية، وهي جملة من سماتها التواصل مع جملة، أو جمل أخرى"

---

(1) انظر: د. مصطفى ناصف : النقد العربي نحو نظرية ثانية- ص 207- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت- آذار 2000.

(2) بناء لغة الشعر ص 48 - 49.

(3) انظر : بناء الجملة العربية ص 57.

حيث يحتويها نص ما، أو هي المنجزة فعلا في مقام، ولها مدلولها داخل السياق نتيجة ملابسات لا يمكن حصرها، يترتب على هذه الملابسات الفهم والإفهام، وهذا النوع من الجمل لا يفهم إلا بإدماجه في نظام الجمل فيعطي دلالته من خلال الاتساق والانسجام" [4]

وتتعدد وسائل إطالة الجملة ويؤدي كل منها دورًا وظيفيًّا يختلف عن الآخر، ولا يتنافر معه.

ورغم أن الجملة قد تطول من خلال العناصر الإسنادية المؤسسة لها؛ فإنها- كذلك- قد تطول عن طريق العناصر غير الإسنادية، وهي كثيرة متنوعة بعضها يطلبه الفعل وبعضها يطلبه الاسم."[5]

وطول الجملة عن طريق العناصر غير الإسنادية يكون بعدة وسائل هي (التقييد والتبعية والتعدد والتعاقب والترتيب والاعتراض) والصفحات التالية عرض لهذه الوسائل، ومحاولة لاستظهار دورها في سبك النص والتحام أجزائه.

أولا: طول التقييد

التقييد إحدى وسائل إطالة الجملة، ويكون إطالة الجملة عن طريق التقييد الذي يقع في" الأفعال المشتقة التي تتضمن الحدث الفعلي فتحتاج إلى ما يحتاج إليه الفعل، ولكن عناصر التقييد مع الفعل تمثل عناصر جديدة في بناء الجملة، وهي مع الأسماء عناصر متممة للاسم المشتق؛ بحيث تكون معه مركبا اسميا". [6]

ويتم هذا الطول في الفعل عن طريق المقيدات، أو المعمولات وهي المفعول به مثل قول حجازي : [7]

وأنا ألج الحلبه

والظرف (المفعول فيه) كقوله : [8]

هنا وقف
هنا على الغصن الذي يميل نحونا

وكقوله : [9]

سلة ليمون
تحت شعاع الشمس المسنون

وهناك مقيدات أخرى غير المفعولات مثل الحال كقوله : [10]

وأنا ألج الحلبه
مختالا ألج الحلبة أثني عطفي
أتلاعب بالسيف

---

(4) د.محمد مفتاح : دينامية النص (تنظير وإنجاز) ص 31 المركز الثقافي العربي – بيروت – ط2 – 1990.

(5) انظر: بناء الجملة العربية ص 57.

(6) السابق ص 59.

(7) الأعمال الكاملة ص 111.

(8) السابق ص 80.

(9) السابق 35.

(10) السابق 111.

واللافت للنظر هنا أن الحال قد تعددت مما ساعد على إطالة الجملة. وهذا الطول لم يأت عتباطا؛ بل عن قصد وتعمد من الشاعر؛ حيث يبين لنا أحواله في دخول الحلبة، فهو لم يرد إخبارنا بدخول الحلبة فقط؛ فلو أراد ذلك لاكتفى بقوله: أدخل الحلبة؛ لكنه يريد أن يسرد علينا ويوضح لنا صوره واحواله وهو داخل الحلبة.

ومن طول التقييد كذلك: تمييز النسبة والاستثناء في حالة المستثنى المنصوب وكذلك ما يتعلق بالفعل من الجار والمجرور مثل قوله : [11]

أتلاعب بالسيف
هأنذا ألقي في ثقة بسلامي

ثانيا: طول التبعية

يتعدد طول التبعية ويتنوع بتنوع التبعية وتعددها؛ من عطف وبدل ونعت وتوكيد. كما تتنوع بما يختص به بعضها دون البعض الآخ؛ حيث يختص بعضها بالاسم وحده وهو تبعية النعت، وبعضها الآخر يختص بالاسم وغيره؛ مثل: تبعية التوكيد، وتبعية البدل، وتبعية العطف. [12] فالطول عن طريق النعت مثل قول الشاعر: [13]

أجر ساقي المجهده
وبعض ريح هين بدء خريف
تزيل ذيل عقصة مغيمه
مهومه
على كتف
من العقيق والصدف

وكذلك نعت الجملة في قوله: [14]

يا ثدي أمٍّ لم يعد فيه لبن

والطول عن طريق التوكيد كقوله : [15]

ونفضت كل النار في نفسي

والطول عن البدل كقوله : [16]

أن تقرأ الشوق الملح إلى الفرح
شوقا إلى فرح يدوم
فرح يشيع داخل الأعماق

وأيضا قوله : [17]

يا من يعيدنا إلى بلادنا
بلادنا العميقة الخضره

---

(11) السابق ص 111- 112

(12) للمزيد انظر: بناء الجملة العربية ص65

(13) الأعمال الكاملة ص 24

(14) السابق ص 29.

(15) السابق ص 33.

(16) السابق ص31.

(17) السابق ص 437.

ثالثا: طول التعدد

تطول الجملة- كذلك- عن طريق تعدد بعض الوظائف النحوية؛ حيث كفل" النظام اللغوي لعدد من الوظائف النحوية أن يتعدد في الجملة الواحدة، وبعضه هذه الوظائف يتعدد إلى حد معين، وبعضها يتعدد بلا تحديد. والمقصود بالتعدد هنا أن يكون بغير وسيلة التشريك بواسطة حرف العطف بطبيعة الحال؛ فهذه توجد في كل وظيفة نحوية تتقبل ذلك؛ ولأن شرط التعدد عدم الاقتران بالعاطف كما يقولون." [18]

وبالإمكان حصر الوظائف النحوية القابلة للتعدد في الآتي:

أ- **المفعول به**: وتعدده مرتبط بمعنى الحدث الذي يطلبه. شاهد ومنه قول حجازي:

ب- الخبر: سواء أكان في جملة اسمية غير منسوخة كقوله تعالى:

[وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد. [19]] ، أم في جملة دخل عليها أحد النواسخ ومنه قول حجازي : [20]

كانت حتى هذا الوقت الملعون
خضراء منداة بالطل
سابحة في أمواج الظل

ج- النعت : كقوله تعالى:[عسى ربه إن طلقن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا. [21]]

ومن ذلك قول حجازي:

د- الحال : وقد علل النحاة تعدد الحال بشبهها بالخبر والنعت. [22]

ومنه قول حجازي: [23]

الجسد الجميل نام
تهدجت أنفاسه تحت يدي
صاعدة منحدره
وانبسطت أعضاؤه
لينة، منكسره

رأينا فيما سبق؛ كيف أن تعدد هذه الوظائف يؤدي إلى طول الجملة، ويعمل على تعقد بنائها، ويجعل من الجملة البسيطة جملة تجنح إلى التعقيد. وهذا التعقيد بدوره يساعد في تعقد الصورة الشعرية وتمددها؛ ومن ثم الاجتهاد في فك شفرات النص، ومحالة تفسيره.

واللافت للنظر أن طول الجملة يتجاوز التوابع ليشمل عمليات الاستبدال في الوظائف والمعطيات النحوية؛ وهو أمر قد شغل قدماء النحاة فخاضوا فيه، إذ" يلمس قارئ النحو أن النحاة–

---

[18] بناء الجملة العربية ص 68.

[19] الآيات 14 : 16 من سورة البروج.

[20] الأعمال الكاملة ص 35.

[21] الآية 5 من سورة التحريم.

[22] الأشباه والنظائر ج4 – :301.

[23] الأعمال الكاملة ص 376– 377.

رحمهم الله– تصوروا تراكيب اللغة على هيئة مجموعات أو بدائل مما يؤذن بأن اللغة بناء واحد تتكامل لبناته ويشد بعضها بعضا كالمصدر الصريح بديل للمصدر المؤول والمفرد في بعض المواقع بديل للجملة، وفي مواقع أخرى بديل للمضاف والشبيه به، والنصب في كثير من المواقع بديل للجر، حتى اعتبره النحويون (أخًا) له، وما سمي بنواسخ المبتدأ أو الخبر هو في الحقيقة بديل كبير للجملة الاسمية مجردة عن النواسخ" [24]

رابعا : طول التعاقب

وفي هذه الحالة تحل جملة أو شبهها محل المفرد، وتقوم بما تقوم به. وهذا الأمر يشمل الجمل التي لها محل من الإعراب؛ حيث نجد أن النظام اللغوي" قد أتاح النظام اللغوي لعدد من الوظائف النحوية أن تشغل إما بالمفرد، وإما بالجملة، ويؤدي شغل هذه الوظيفة النحوية أو تلك بالجملة إلى طول الجملة الأساس وهي الجملة الكبرى، أو المركبة التي تكون الجملة المعاقبة للمفرد عنصرا فيها؛ وذلك لأن هذه الجملة قد تستطيل هي الأخرى بالوسائل اللغوية المتاحة ؛ فيؤدي ذلك إلى تعقد البناء. [25] وتعقد البناء يسهم في البناء العنقودي للصورة الشعرية.

والجملة تعاقب المفرد في خمسة مواضع هي:

أ- الخبر: ويستوي في ذلك أن يكون خبرا للمبتدأ أو خبرا لأحد النواسخ.كقول حجازي[26]

سماء شباكي غير مقمره
والجسد الجميل نام
وثم ضوء شاحب
يغسل جو الحجره
يشع من أشيائها المنتثره

ب- الحال: ويجيء مفردا وجملة.

ج- النعت :من الوظائف التي تعاقب الجملة فيه المفرد؛ ولكن ذلك مشروط بأن يكون المنعوت نكرة

د- المضاف إليه : وفي هذا الموضع نجد أن بعض الأسماء تجب إضافته إلى الجملة؛ ولكن لأن الإضافة في أصل أمرها للمفرد اعتبرت الإضافة إلى الجمل فيها معاقبة للمفرد وهذه الأسماء هي إذ وإذا وحيث ولما الحينية.

هـ - المفعول به: لا يكون المفعول به جملة على الإطلاق؛ ولكن هناك مواضع معينة يقع المفعول به جملة، وهي:

- إذا كان مقولا للقول كقوله تعالى:[قال إني عبد الله أتاني الكتاب][27]

- إذا كانت الجملة الواقعة مفعولا به خبرا في الأصل ودخل عليها فعل من باب ظن وأخواتها فإنها تكون في محل المفعول الثاني ومنه قول الشاعر:

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم فإني شربت الحلم بعدك بالجهل تخريج

---

[24] د. محمود عبد السلام شرف الدين : التوابع بين القاعدة والحكمة ص 9 – دار الثقافة العربية القاهرة – ط1 – 1987 / 1407

[25] بناء الجملة العربية ص 70.

[26] الأعمال الكاملة ص 375

[27] جزء الآية 30 من سورة مريم.

-**في باب التعليق** : وهو غير مختص بباب ظن بل هو جائز في كل فعل قلبي والتعليق هو أن يعترض ما له صدر الكلام بين الفعل ومفعوله، وما له صدر الكلام هو حرف النفي ما لا إن ولام الابتداء ولام القسم والاستفهام بالحرف أو بالاسم سواء أكان أحد جزأي الجملة المعلق عنها الفعل أم كان فضلة فيها

خامسا: طول الترتيب

قضية الترتيب/ الرتبة قضية رئيسة من قضايا النحو العربي، وقصدنا بالترتيب هنا أن" توقف جملة على أخرى واحتياجها إليها وتعليق حكم مفهوم من جملة على حكم آخر سواء أكان ذلك عن طريق أداة- غير أدوات العطف- تربط بينهما وتجعل الأولى شرطا في حدوث الثانية أم لم يكن عن طريق أداة مستقلة بحيث يكون ذلك متوقفا على دلالة الجملة الأولى على الطلب الذي يترتب عليه ما بعده ويتسبب عنه. واحتياج الجملة الأولى إلى الثانية وتوقف الثانية على الأولى يؤدي إلى طول الجملة المفيدة وتعقيد تركيبها." [28]

والإطالة عن طريق الترتيب تأتي في مواضع حصرها النحاة في الآتي:

أ- أسلوب الشرط: لقد اعتبر النحاة جملة الشرط في حقيقة الأمر جملتين، وقد قامت أداة الشرط بتعليق حكم إحداهما بالأخرى.

ب- الجملة الفعلية التي يقع فعلها مجزوما في جواب الطلب كقوله تعالى:

[ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل قال إني عبد الله أتاني الكتاب]

ج-الفعل المنصوب بعد فاء السببية وواو المعية في جواب نفي محض. كقوله تعالى:[ولا يقضى عليهم فيموتوا]

د- أسلوب القسم: إذا كان القسم بجملة سواء أكانت اسمية أم فعلية كقوله:

وأقسم لم أكن صادق.

وكقوله:

نحن الشهود نقسم بالله العظيم أن نقول الحق
وكيف يكذب الرجال الميتون

سادسا: طول الاعتراض

اعتبر النحاة الاعتراض وسيلة لإطالة الكلام؛ وقصدوا به وجود جملة اعتراضية في الكلام ليس لها محل من الإعراب، كما أنها" لا تمثل عنصرا إسناديا، ولا غير إسنادي في بناء الجملة؛ ولكنها....لا تنفك عن الجملة الأصلية، ولا تزول عنها من حيث معناها؛ لأنها تعترض بين عنصرين متضامين متلازمين ؛لإفادة الكلام تقوية وتسديدا أو تحسينا." [29]

وبعد هذا العرض الذي يغلب عليه الطابع الاستشهادي؛ نلجأ التدليل على وجود هذه الظواهر، أو بعضها في شعر حجازي كما في قصيدة المخدع." [30]

هذه قصيدة من طراز خاص لشاعر من طراز خاص، فأما خصوصية القصيدة فتعود إلى الطريقة التي كتبت بها، والشكل الذي جاءت عليه فهي من بحر الطويل الذي وزنه:

---

[28] بناء الجملة العربية ص 72.

[29] بناء الجملة العربية ص 77.

[30] الأعمال الكاملة ص 55

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وقد جاءت على الطريقة العمودية التي يتساوى فيها شطرا البيت من حيث التقسيم الوزني، ومن حيث التوزيع الكتابي على الورق؛ هذا فضلا عن جماليات القصيدة من حيث الصور والتراكيب ناهيك عن الموضوع الذي تعالجه؛ ولكننا في الشعر أو الأدب عادة نهتم بكيفية المعالجة وليس بالموضوع المعالج.لأن العبرة بالكيفية التي قال بها الشعر، وليس بما قال.

هذا عن القصيدة؛ وأما عن خصوصية الشاعر فتأتي من دوره الذي لا ينكر في ريادة الشعر الحر/ التفعيلة، وجمال أسلوبه وعذوبة لغته وقوتها في الآن ذاته. كما أنه-وإن عد علما على شعر التفعيلة- فإنه لا يلبث أن يعود إلى الشكل الخليلي بين الفينة والفينة إما حنينًا لتراث وماض جميل، وإما إثباتا للذات وإشعارًا بالتفوق والتفرد في فن القول الموزون.

ونلاحظ أن هذه القصيدة البالغ عدد أبياتها خمسة عشر بيتا خليليا؛ لا يكاد يخلو منها بيت واحد من أسلوب من أساليب الإطالة؛ إما عن طريق العطف أو الوصف، أو الاعتراض أو الحال.....

يبدأ الشاعر قصيدته بطريقة الاسترجاع (الفلاش باك) الذي يبدأ بسرد الوقائع من النهاية عن طريق التذكر، ويستغل الشاعر إمكانات اللغة في الوصول إلى ما يريد؛ وذلك عن طريق الواو العاطفة على المسكوت عنه الذي لم يرو في مفتتح القصيدة، وربما نعرف شيئا منه داخل القصيدة بعد قليل، وكذلك باستخدام (لما الحينية) مضافة إلى الفعل الماضي (أفاقت)، ويطيل الجملة عن طريق استخدام حرف الجر في قوله: (عن رداء) وهو لا يكتفي بهذا بل ينعت الرداء بأنه ممزق، ويستثمر الشاعر الإضافة في إطالة الجملة بعد استخدام العطف حين يقول:

ونوح سرير آثم خافت الهمس

ووأن طبيعة الشعر هي النزوع" إلى التصوير فقد استغل كذلك الإمكانات التي تتيح أن تطيل الجملة عن طريق تعدد بعض الوظائف النحوية، أو عن طريق التبعية بالنعت أو البدل أو العطف أو التوكيد أو بهما معا أو ببعضهما دون الآخر، وعن طريق التعاقب بين المفرد والجملة في شغل بعض الوظائف الخاصة في الجملة. ومما يستلفت الانتباه في هذا المجال أن الوظائف النحوية التي يتيح لها النظام النحوي أن تتعدد وهي: الخبر والنعت والحال هي نفسها ضمن الوظائف التي يتيح فيها النظام النحوي للغة أن يقع فيها التعاقب بين المفرد والجملة." [31]

والشاعر حريص على أن يستغل هذا الإمكانات في إيصال مراده وإبداع صوره؛ إذ يستخدم تعاقب الوصف لإبراز صورة هذه الإنسانة المعذبة حين يقول:

وكأسين كأس لا يزال بكفها
وكأس يغني وحده قصة الأمس
وضوء سراج غامض ظله صدى
لألوان حلم باهت ذكره ينسي
هما أغمضاه عندما رقص اللظى
ومالت ظلال العاربين على الكأس
وعصفورة حيرى الجناح ضريرة
رماها الدجى فاشتاقت النور باللمس

[31] بناء الجملة العربية ص 308.

فتعاقب كل من العطف والوصف هنا يوحي بالتتابع والرصد في سرد ما حدث لهذه المرأة؛ التي قد تبرز في بعض المقاطع، أو من خلال الاستنتاج الظني على أنها البغي الفاضلة التي صورتها قصائد وروايات الرومانسيين على أنها ضحية المجتمع ونتيجة لأخطائه.

ولقد" كان النحاة على حق حين شبهوا العلاقة بين النعت المفرد ومنعوته بعلاقة الشيء بنفسه...، ولعل وثاقة علاقة الارتباط بين النعت المفرد، ومنعوته راجعة من حيث البنية المضمرة إلى وثاقة علاقة الارتباط بين الفعل والفاعل." [32]

والشاعر هنا لم يغفل هذا الإمكان من إمكانات اللغة حيث نرى أن النعت المفرد هو الغالب على القصيدة؛ ليبرز مدى شدة الارتباط بين النعت والمنعوت، وكأنهما شيء واحد ومن هنا جاءت (وريح..حنانة الصدى)، و(المئزر المنسي)، و(الأسجاف لوعى مديدة)، و(نوح سرير آثم خافت الهمس) ، و (رداء ممزق).

وإذا كانت رفيقة طرفة بن العبد فضفاضة الرداء رفيقة بجس الندامى تأتي طواعية مختارة لفعل النشوة أو كما قال: [33]

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى بضة المتجرد

فإن رفيقة حجازي (الشاعر) قد أُخذت غيلة وأجبرت على الانتشاء، أو على مساعدة الآخرين على النشوة رغم بياض نهدها الذي يشبه الحانة التي يثير ذكرها في النفس مناظر النشوة والشهوة؛ حيث الخمر والملذات، والذوبان في عالم المتعة.

وعلى عكس رفيقة طرفة؛ نجد رفيقة شاعرنا دامية النهد من آثار خطى الفساق نتيجة الإجبار على الفعل.

ويظل الشاعر في غمار نشوته وهو بصدد معالجة التجربة شعريا؛ يغترف من إمكانات اللغة حين يقرن بين المفعول به وبين الوصف في تركيب واحد يوضح مدى لهفة هذه الرفيقة أو فزعها لما حدث لها على غير رغبتها حين يقول:

تلوت توارى في يديها مفاتنا
عرايا تشهاها المصلون في القدس

فالمفاتن عرايا تحرص هي على إخفائها، وموارتها في مشهد هستيري، وهي تتلوى من أثر الفجيعة عن أعين الفساق الذين فتكوا بها ومزقوا رادائها.

وهي تزم –كعذراء- فتوق ردائها
ولكن هيهات

في هذه القصيدة الرائعة رأينا كيف أن الشاعر قد استخدم المعطيات اللغوية لإطالة الكلام في تصوير ما يريد تصويره، وإبراز أهمية اللغة في هذا التصـوير أو هذه المعالجة وذلك حين جاءت استخداماته لوسائل إطالة الكلام موزعة بين النعت والحال والعطف والاعتراض وحروف الجر، كل ذلك جعل القصيدة متماسكة متناسقة مترابطة متناغمة تقول ما تقوله في أسلوب رائق متتال متتابع، وقد ساعد على ذلك أيضا استخدام الشاعر للنمط الخليلي الموروث المتكئ على توازي شطري البيت مدعما بالقافية الهامسة عن طريق حرف الروي السين المكسورة كل ذلك جعل القصيدة كالكلمة الواحدة لا عوج فيها ولا أمتة.

ولا يقتصر استخدام الشاعر(أحمد عبد المعطي حجازي) لإمكانات اللغة ووسائل إطالة الكلام على هذه القصيدة؛ بل يتعداها ليشمل قصائد كثيرة من أعماله، بل يمكننا القول بأنه لا تكاد تخلو قصيدة من أعمال الشاعر أو أي شاعر على الإطلاق من وسائل إطالة الكلام من فعل وفاعل أو مبتدأ

---

[32] د. مصطفي حميدة: نظام الارتباط والربط ص 185 : الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان- القاهرة – ط1 - 1997.

[33] ديوان طرفة ص 48 وانظر : تحقيق د. علي الجندي –دار الفكر العربي – القاهرة –د.ت وانظر: شرح المعلقات العشر لأبي عبد الله الحسين أحمد بن الحسين الزوزني – ص 46 مؤسسة علاء الدين – سوريا – ط1- 2003.

وخبر، بل إن تشكيل الصورة الفنية والإفصاح عن التجربة يقتضي شيئًا من الإطالة وشيئًا من التتابع في سرد التجربة فلا مناص حينئذ للشاعر من استخدام وسائل إطالة الكلام بشكل أو بآخر.

ولنأخذ مثالا آخر لتوظيف وسائل إطالة الكلام والتي تبرز فيه هذه الوسائل بقدر من الوضوح اللافت للنظر مما يعني أنها لا تأتي اعتباطا؛ ولكنها تحمل خلفها كبير معنى وهذا المثال هو قصيدة مذبحة القلعة [34]

وهي القصيدة التي يحكي الشاعر فيها قصة مذبحة القلعة؛ التي قتل فيها المماليك غيلة على يد محمد على؛ حين خدعهم بدعوتهم إلى حضور حفل توديع الجيش الكبير الذي يرأسه ابنه طوسون؛ ذلك الجيش الذاهب إلى قتال الوهابيين في شبه الجزيرة العربية؛ هؤلاء الخارجين عن مولاة أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين بالآستانة.

وليس المقصود بالطبع في هذه القصيدة أن يقص علينا الشاعر تجربة المماليك

أو ما عانوه في مذبحة القلعة، وبطولة أمين بك الذي طار بحصانة من فوق أسوار القلعة؛ بل إن هناك معنى ومغزى أعمق من مجرد سرد الواقعة التاريخية، فالشاعر يستخدم الإسقاط التاريخي على العصر الذي يعيش فيه، أو بعبارة أخرى يأخذ التاريخ كمعادل موضوعي لتجربته الحالية؛ فيستطيع حينئذ أن يبرز عيوب واقعة ومجتمعه والسلطة الغاشمة التي تحاول القضاء على كل من يعارضها مثلما فعل محمد على بالمماليك من قبل.

يبدأ الشاعر قصيدته مستخدمًا الكاميرا (السينمائية) اللفظية لرصد الصورة، أو المشهد الليلي المخيم على المدينة فيقول :

الدجى يحضن أسوار المدينة
وسحابات رزينة
حرقتها مئذنة
ورذاذ وبقايا من شتاء
.....
... وتلاشى الصمت في وقع حوافر
وترامى الصوت من تل لآخر
في المقطم

هذا المشهد الليلي الذي يكرره الشاعر مرة أخرى؛ لإبراز أهميته وحرص الشاعر على تصوير لحظة المؤامرة، ونسج خيوطها.

ويعتمد الشاعر في سرده للأحداث على المعطيات اللغوية؛ إذ يتكئ الشاعر على القافية عن طريق تنوعها؛ مما يوحي بتتابع الأحداث وتواليها.

وبدا في البرج حارس
وجهه في المشعل الراقص أقتم
متجهم
ثم رنت في فراغ البرج صيحة
ثم دار الباب في صوت شديد

---

[34] الأعمال الكاملة ص 59.

باب القلعة
فيه آثار دماء وصدأ
واختفي الفارس في أنحائها
صاعدا يحمل للباشا النبأ
المماليك في المدينة

والنظر إلى الأبيات السابقة يدل دلالة واضحة على أن جوهر الشعر هو« اللغة الفنية التي تنظم فيها الألفاظ نظما فنيا خاصا؛ يدل على مهارة الشاعر، وصدق تجاربه وقدارته التعبيرية التي تجسد تلك التجارب في هذا النظم الفني الذي يثري شعور المتلقي، ويخيل في وجدانه معاني وأحاسيس يفتقدها في لغة النثر المباشرة. "[35]

ولعل أبرز ملمح لغوي أسلوب القصيدة هو اعتمادها بشكل كبير على العطف، واستخدام حرف (الواو)؛ ليؤدي هذه المهمة دون سواه من حروف العطف الأخرى؛ إذ يتكرر حرف الواو تسعا وسبعين مرة على امتداد القصيدة كلها والواو" قرينة من القرائن اللفظية في التركيب تؤدي وظيفتها فيه بالربط بين المتعاطفين وتدل على الجمع بينهما"[36] مما يشي بشدة ترابط أجزاء القصيدة والتحام أجزائها .

وإذا كان الشاعر يتكئ بشكل أساسي على العطف عن طريق الإكثار من استخدام حرف (الواو)؛ ويستخدم القافية أيضا للإيحاء بتتابع الأحداث وتناميها فإنه يعتمد
الوصف أيضا كبنية أساسية في قصيدته تؤدي دورها في تلاحم أجزاء النص عن طريق إطالة الجملة إذ يقول :

غير شحاذ يغني للقلوب المؤمنه
ورياح واهنه
تتلوى في الحواري الحجريه
ثم تمضي في دروب الأزبكيه
في مياه البركة الخضراء تهوي
حيث يبدو قصر مملوك جميل
روع الإفرنج في يوم طويل
عندما شد الخيول
لتبول.
فوق صحن الأزهر المعمور لا كان تعود
عندما شدوا الخيول
وكذلك يعتمد الحال في أساليبه
ثم ينداح المنادى والصدى
يتلاشى..... يتلاشى... مجهدا
ويعود الصمت عيش في الحواري الحجرية

بل إنه يعتمد على القوافي الداخلية إلى جانب القوافي الخارجية؛ لتؤدي دورا بارزا في البناء الدرامي والمعماري للقصيدة؛ فتجيء متماسكة الأجزاء متناسقة. مسبوكا سبكا واحدا.
ويمد العين شبح خارج من باب دار

---

[35] د. حسن طبل: المعنى الشعري في التراث النقدي ص 166- دار الفكر العربي – القاهرة – ط 3 – 1998.

[36] د. مصطفى حميدة أساليب العطف في القرآن الكريم ص 52- الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان- القاهرة – ط 1 – 1999

يتوارى ويتمتم
في جهنم
ما لنا نحن وطوسن يا حمار
ويرد الباب في حقد وراه

والشاعر لا يكتفي بتوظيف كل من الوصف والعطف في إطالة الكلام فقط؛ بل إنه يستخدمها في تدعيم القافية حين يقول :

قالها السقا على بلب قديم
ويموج السوق بالذكر الحكيم
ويحيي الناس درويش صبوح
.....
ومشت في المشربيات العتاق
ضحكات ناعمات
لجوار صالحات
بحرير وعطور وانطلاق

وهكذا تتبدى إمكانات اللغة رائعة رائقة تهب نفسها لمن يجيد استخدامها وتوظيفها والشاعر (حجازي) واحد من هؤلاء الذين يعرفون أسرار اللغة، ويجيد توظيف إمكاناتها. وشعر حجازي مليء بهذه السمة، وانظر على سبيل المثال قصائد: (لمن نغني) [37]و (قصة الأميرة و الفتى الذي يكلم المساء) [38] و(سوريا والرياح) [39]و(طللية) [40] و(هذا المساء يا عزيزتي جميل) [41] و(مرثية للعمر الجميل) [42]

وجملة القول هنا أن وسائل إطالة الكلام من الملامح الأسلوبية البارزة في الديوان والتي تساهم بشكل فعال في إبراز جماليات النص، وتنامي دراميتها، وكذلك ترابط بنائها الفني والمعماري، والذي يجعل القصيدة مترابطة الأجزاء لا انفصام بين عراها، ولا تقاطع بين أوصالها؛ بل إنها تجيء على شكل الجسد الواحد النابض الذي يؤدي كل عضو فيه وظيفته على خير وجه من أجل سلامة الجسد واستقامة صحته ككل .

---

[37] الأعمال الكاملة ص 29.

[38] السابق ص 43.

[39] السابق ص 105.

[40] السابق ص 575 .

[41] السابق ص191.

[42] السابق ص 411.